# صورة مازن

قصة بقلم فضيلة الرفاعي

الغرفة ضيقة .. الضوء فيها شاحب .. على سريري أكداس من الصحف والمجلات تتصدرها صور باسمة . في أسفل الصور حروف مذبوحة تسيل دما وتزيد في بقائي رمزا للفجيعة .. باب الغرف مغلق .. عيناي تتنقلان من صورة الى أخرى .. في كياني رعشة غريبة ، وفي حلقي صرخة ألم محبوسة توشك أن تنطلق ... أتلفت حولي كالخائفة .. أمي تنام في غرفة ملاصقة .. أشعر بها بعيدة عني آلاف الأميال عندما أنزف آلامي . وجه أمي من النوع الهادىء لا يطول معاناتي ولا يستخلص السمة المؤلمة التي تلتصق بوجهي .. أحاول عبثا أن أغمض عيني للهرب من جنون تفكيري .. أقفز من مكاني في هلع وقد نضج جسمي بالارتجاف وأقبض على حافة السرير أهزها بعنف حتى تشنجت يداي .. ثم تراختا ليصبح الصمت عميقا أكثر فأكثر .. صوت الساعة يعلن الحادية عشرة .. تؤلمني دقاتها المنتظمة .. يؤلمني الباب المغلق .. تؤلمني الصور الباسمة التي تطل من الصحف .. يؤلمني أن لا أحد حولي يحاول الالتقاء بي داخل الاعصار الذي يضج في داخلي .. فالكل يجدف في الظل بطريقته الخاصة .. والكل يختزن أفكارا معاكسة لي .. والمسافة بيني وبين الناس قد تمتد عمقا .. ان لكل منهم تعبيرا مختلفا يمارسه على غير اقتناع .. أشعر بظلي يهرب مني .. أرى الجنون واضحا في سيره .. يتقدم الوجوه المرفوضة ويقفز فوق الدخان يطوق المدن المحترقة الاضلاع لانقاذها من أيدي الغزاة البرابرة .. المدن هناك ، يا لوعتي ، فقدت لون السماء والفرح .. وانحسرت عنها النجوم .. ولكن ثمة من يسافر اليها يشعل في جرحها روحه .. تفزعني المقارنة على نحو متزايد : هناك بنادق متوترة تأكل لحم الاطفال والنساء وتخفق باستمرار في قلوب الشهداء .. وهنا نماذج بشرية ليس لها القدرة على الزحف في قلب الاحداث .. هناك نضال متعاظم يحدد هويات الرجال ، وهنا رجال بلا هوية ونساء بلا قضية يركضون معا نحو الاسفل ...

الكلمات المتألقة على جبين الصحيفة تتوالد في عيني انفجارا : « أبطال المقاومة في الارض المحتلة يدفعون ضريبة الفداء مبتسمين » ..

أغمض عيني لاسكت رعشة الخوف في صدري .. لا .. ليس مازن وحده هو الذي يركض في عيني ويدفع ثمن اخطاء البشر .. كلهم يدفعون .. كلهم يدورون حولي .. كلهم ينامون في رأسي .. مازن فقط ينام في قلبي .. وأنا كالفراغ تماما .. ليس لي هوية أو علامة تقربني منهم .. ألهرب من الاشياء حياة جديدة أمارسها .. أخاف اتساع عيني عندما أفتحهما .. صورة بقرب صورة وحلم فوق حلم .. وأصداء بعيدة تكرس ضياعي وتطرز لي قلقا ممضا .. الحروف التي كتبت على لحم الشهداء تضج في أبصار العالم وسمعه .. والصور الصارخة البروز تفرض نفسها فوق الهزيمة وفوق الكلمات المطوطة .. ويملك أصحابها القدرة على العمل بشكل مدمر . ثم يدفعون ضريبة الاخطاء وحدهم ..

تتداخل الكلمات الهاربة في عيني .. تضرب وعيي .. اذن بالمدن هناك لا تنام تحت أضواء الفرح .. انها قلقة .. شاحبة .. تتنفس طلقات وقذائف . ولون الوجوه فيها يتبدل باستمرار .. والسواعد الرائدة تتقارب في كل مكان وتبدأ اشعال مدن الاحتلال .. فالعصر عصر الاغتصاب ، وليس للمدافع عن أرضه سوى دخول التاريخ من أوسع أبواب الفداء .

أصوات السكارى في الخارج تصفعني .. ورائحة الانكفاء المر تفوح منهم وتتمدد وجعا في خلاياي المتعبة .. ان الوقت يغتالهم كل ليلة على هذه الصورة البشعة .. وانهم من النوع الذي يعيش بلا زمن .. رائحة الارتجاف تعبق في الغرفة .. تبينت آثارها في أطرافي .. انزلقت عن السرير فاقدة الهدوء ، واستطعت في زحفي الباكي أن أتمركز وراء زجاج النافذة ، وتمكنت من رؤية انقذاف المطر على الوجوه المرفوضة والعيون الخائبة الوميض والنظرات التعبى التي يأكل بعضها البعض الآخر .. وأنا أتابع النظر الى الاسفل بدوت مشتتة الذهن ، مشدودة الى عالم آخر يرفض تواصلي مع العالم الذي أنا فيه .. أرى بعين قلبي مازن ، قافزا على التلال وفوق الجبال ، يرسم أحلامه البيضاء بالدخان الاسود فوق مدن الاغتصاب. وهو : مازن ... يحمل نضجه وطفولته وثورته يزرعها رعبا في العيون القريبة ويخلق من التضحية واقعا متحركا يرسم للاجيال الناقمة طريق الاستمرار .

رفعت وجهي عن الرصيف والصقته بالشرفة المقابلة .. كانت الشرفة أمامي تخفق بين حبات المطر وتتشرب أجنحة البرق وضجيج الاصوات .. في هذه الشرفة ومض حبي ولم ينطفىء .. وعلى حاجزها رسمت وجهي كي يلتقطه مازن ولم يلتقطه .. صورة مازن تغوص في عيني .. يقف على الشرفة بوجهه الاسمر .. وعينيه اللتين يزغرد العزم فيهما .. يبعث الي عبر نظراته بكلمة حب لم تلفظها عين أحد من قبل .. يرفع صوته بالتحية .. أخفض بصري وأحلم بملكية العالم .. الوله يختزل المسافة الزمنية بيننا .. يداه تلامسان خصلات شعري .. أرتعش أنا بين يديه كطائر بلله المطر .. أبدو منتشية .. رائحة جلده تسكرني .. تمدني بالدفء والاطمئنان.. الابعاد تختفي من عيني بطريقة ما .. أشعر بالوحدة على نحو قاتل.. تمتد يدي توقظ المذياع .. أسافر معه في رحلة الكلمات :

« قامت قواتنا بضرب ..... وعادت الى قواعدها سالمة » .

تخترق صدري مشاعر حادة كالخناجر .. أتساءل بألم عن مكاني في عالم الدم .. ولماذا دوري في القضية كان وما يزال ثانويا وقاصرا ؟.. أنا لم أحس بحاجتهم الي للدفاع عن وطني .. وهذا ما جعلني أفكر بأنني عديمة الوجود والفائدة وقليلة الاهمية بالنسبة للاشياء الكبيرة .. ووجودي المنكفىء هذا ليس الا تأكيدا مبنيا على شيء واحد أمارسه في لحظة ما تعبيرا عن طريقة غير أصيلة من طرق الحياة .. ثم أتمركز بحتمية سلبية في المنطقة الباردة من الاحداث ..

الاصداء البعيدة تحمل الي الحكاية الناقصة .. كنت طفلة تبوح

بأحلام آثامنة وترنح في الامسيات الدافئة .. وفجأة اقتلعت جذوري عاصفة جحيمية وهوت بي مع الكثيرين تحت سماء بلا شمس وخيام بلا دفء .. عرفت بعدها انها لعبة قام بها الطغاة الكبار تكريسا لعصر الاغتصاب .. ولم يكن لشعبي في هذه اللعبة القذرة سوى دور القاصر المتشح بالغضب .. والالم .. والتمرد .. يومذاك عرفت طعم البكاء لاول مرة ... وسألت أمي وهي تسحب جراحها فوق طريق الآلام عما اذا كان اللصوص سيسرقون لعبتي الصغيرة من المنزل الذي تركناه وراءنا .. فلم تجبني .. واستمر الحزن على لعبتي غافيا تحت جلدي طوال الطريق .. وكان حولنا أناس كثيرون يتهمون .. ويبكون .. وأنا ومازن .. وجميع الاطفال ظللنا صامتين كالحجارة نرى ونسمع ولا نفهم .. وتتالت الايام والشهور ولم يستطع أحد منا أن يسترد ما أخذه منه زمن الاغتصاب . وظلت لعبتي الصغيرة في ذهني كالوهم .. وظللنا غرباء فوق أرصفة المدن.. وكنت أرى والدي حزينا وصامتا دائما . لم يعد يدور حولي ويأخذني بين يديه كما كان يفعل هنا .. ولم أفهم لذلك سببا .. وكنت أتألم لصمته ، وذات يوم بحثت عنه فلم أجده .. وسألت أمي .. فبكت.. وعرفت توا انه ذهب الى هناك .. ذهب منتشحا بالغضب والحقد يفجرهما فوق الرؤوس الفارغة .. ولم يعد أبدا . يومها غمرني احساس كاف بأن العالم كله موجود هناك حيث ذهب والدي .. وبانني سأذهب ذات يوم للبحث عنه هناك .. وفي السنين التي تتالت كانت حركاتي توحي باقترابي من القضية التي انتدب والدي نفسه للعمل من أجلها . وكان من حولي لا ينتمون الى عالمي ويصرخون بوجهي دائما بانهزام متخاذل : « ماذا يستطيع الفرد أن يعمل ؟ »

وكان مازن وحده يشاركني الاحساس بأن الفرد يستطيع أن يحدث ضجيجا تتيبس له أسماع العالم .. وان الايجابية هي صوت الادانة الداوي .. هي العاصفة التي ليس بالامكان ايقافها وهي تنهب الفضاء .. وكان يحمل الي الغد والشمس والحياة .. ويركض في أحلامي وأركض في مبادئه .. ثم ذهب .. وتركني سجينة خلف قضبان الانتظار وجدار من العار عمره ستة أيام ..

سنوات ثلاث من الحب تركها مازن وراءه ، وقبلها سنوات من التشرد جمعتنا .. نسيها كلها في غمرة اندفاعه لاختراق جدار الخجل حيث سقط بعدها شهيدا مبتسما .. لقد رأيت صورته تتصدر الصحف منذ أسبوع .. وطالعني فيها غضب الانسان وانفجاره .. ويقين المؤمن باستشهاده .. ومنذ أسبوع وأنا أسبح في بحيرة دمائه .. أغوص في مبادئه .. أرتمي داخل تمرده .. منذ أسبوع كبرت فجأة .. شعرت بأن دوري في القضية لم يعد قاصرا وثانويا ... أبتعد عن النافذة .. يغمرني احساس بأن تصميمي أصبح أكثر تطاولا .. أسير باحتراس نحو السرير وانحدر في فراغه .. وفي لحظة واحدة كان العزم يفحمني ويبخر آخر ذرة من ترددي ... أصبحت واعية وعيا عميقا ... يدهشني أن أرى الاشياء أكثر وضوحا ... صورة مازن تمتص مني الرعب .. ابتسامته تمنعني من الانكفاء بشكل فجائي .. نركض معا في حلم مبتسم .. نحكي للعالم حكاية الاخطاء .. أغمض عيني وأتابع التصميم ...

**فضيلة د. رفاعي**


**دار الآداب تقدم**

في الموسم الجديد القادم
**مجموعة هامة من الكتب الجديدة**

**بين آدم وحواء**
للمرحوم الدكتور زكي مبارك

●

**الشعر الجديد ... لماذا ؟**
تأليف صلاح عبد الصبور

●

**مختارات من شعر علي محمود طه**
تقديم صلاح عبد الصبور

●

**عن الرجال والبنادق**
بقلم غسان كنفاني

●

**اصول الفكر الماركسي**
تأليف اوغست كورنو
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

●

**صورة الفنان في شبابه**
رواية تأليف جيمس جويس
ترجمة ماهر البطوطي

●

**الشوارع العارية**
رواية تأليف فاسكو براتوليني
ترجمة ادوار الخراط

●

**صحراء التتر**
رواية تأليف دينو بوزاتي
ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني